رسائل

القرآن

اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم
في مصر في القرن العشرين

رسالة دكتوراه تقدم بها محمد إبراهيم شريف، المدرس المساعد الى كلية دار العلوم / قسم الشريعة الإسلامية ، إشراف الشيخ عبد العظيم معاني وأجيزت بـ (مرتبة الشرف الأولى) في ١١/٢/١٩٧٩ م

بدهي أن يكونَ القرآن محور دراسات عديدة ومتنوعة ، فقد وجد العلماء فيه ضالتهم وأخذ كل منهم لفنه بقدر فهمه للنص القرآني وما يستلزمه هذا الفهم من أدوات وطاقات . ولقد تقرر ثراء النص القرآني كحقيقة ، الأمر الذي نوّع المدارس وعدّد الاتجاهات في شرحه وتفسيره ، غوصاً وراء مراميه ، وطلباً لوجوه الهداية فيه .

وقد كان حظ مصر كغيرها من بني الإسلام معايشة للقرآن ،واستلهاماً له ، غير أنها كانت أوفر حظا من غيرها ، حيث تولت ـ بعد إغلاق باب الاجتهاد ـ دورا رائداً في بعث الفكر الإسلامي والرجوع به إلى مصدره الأول ، كما كانت أمل العودة به إلى حركة نشطة خلاقة ، تدعوه دائما إلى مراجعة ذاته بين حين وآخر ، ليتخلص من زيف عصور التخلف ، ويعود نقياً من جديد .

وقد كان هذا سببا من أسباب وجود دراسة تحمل عنوان « اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر في القرن العشرين » ترصد جوانب التجديد ، وتستجلي ملامحه ، وتؤصل مبادئ اتجاهاته ، وتتعرف جديد مناهجه ، وتستوضح حجج المعارضين لهذه وتلك ، وتقف أمام محاولات التجديد على اختلاف مناهجها . إلى غير ذلك مما يقتضيه البحث منهجا وموضوعا .

واختيار الباحث ميدان التفسير أمر له ما يسوغه عنده « وحيث كان تفسير القرآن الكريم هو قطب رحى الفكر الإسلامي ، فقد كانت قضية التجديد فيه ، وشرعية هذا التجديد وأسسه ـ مسايرة لروح العصر من جهة ، وتمثلاً صحيحاً لطبيعة الفكر الإسلامي وأصوله من جهة ثانية ـ مثار الاهتمام من حيث مواكبة التفسير القرآني لقضايا الأمة التي يفرضها العصر ، والتزامه بتقديم كلمة القرآن فيما يعترضها ـ في نهضتها الجديدة ـ من مشكلات ، ومن هنا بدا واضحاً في التفسير الجديد اعتناؤه بالتطبيق الواقعي الذي ميزه كثيراً عما سبقه من تفسيرات العصور السابقة . وتشهد على ذلك أية نظرة سريعة ـ فضلاً عن أن تكون دراسة فاحصة ـ تلقى على تفسير حديث ، وآخر ينتمي إلى عصور سالفة » .

ولأن الموضوع يتعرض لحركة التفسير القرآني في مصر خلال السنوات الخمس والسبعين الأخيرة ، وهذا اتساع فكري يجعل الإحصاء والرصد الدقيق لكل ما كتب أمراً صعباً ، لهذا وغيره من أسباب منهجية فقد اختار الباحث منهج الإختيار والانتخاب خاصة في المباحث التي تعرضت للمحاولات التفسيرية الممثلة للاتجاهات المتنوعة والدالة على المناهج المختلفة فيها ، كما اختار الباحث منحى إدارة الحديث عن التجديد التفسيري في مختلف اتجاهاته ، من خلال القضايا المهمة التي شغلت المسلمين حديثا ، وظهرت فيها جهود المفسرين التجديدية واضحة .

● جاءت الدراسة في مقدمة وثلاثة أبواب :

● شغلت المقدمة بما تشغل به عادة من حديث عن الموضوع اختياراً ومنهجا .

●● أما الباب الأول فكان « **تمهيدات على طريق الدراسة** » عالج من خلال مباحثه ما ظنه الباحث ضروريا في باب تحديد المصطلح ، وبيان طريقة المعالجة والأداء . وقد جاء في فصلين تناول الأول منهما « بعض القضايا

والمصطلحات التفسيرية» فاشتمل على ثلاثة مباحث: **أولها**: عن النشاط المصري في تفسير النصوص المقدسة القديمة، والقرآن الكريم، وقد استهدف هذا المبحث بيان دور المصريين في مجال تفسير القرآن الكريم ووضعه في مكانه الصحيح من تاريخ التفسير، خاصة وأن كثيرين من مؤرخي الثقافة الإسلامية، في العصرين الوسيط والحديث قد غفلوا عن هذا النشاط المصري الرائع. **أما ثاني هذه المباحث**: فقد غطى قضية هامة وخطيرة إذ تحدث عن قضية الغزو الفكري وأثره في ثقافتنا الإسلامية عامة، وفي التفسير القرآني خاصة وذلك لمعرفة مدى أصالة هذه المحاولات التجديدية بارتباطها بأصلها وفهمها الحقيقي له، ولمعرفة أثر المدنية والعصرية في بعض هذه المحاولات. وأما المبحث الخاتم لهذا الفصل فكان تحديداً للمصطلحات الشائعة في تاريخ التفسير مثل الاتجاه والمنهج، والتيار أو النزعة . . . وهكذا ينتهي الفصل الأول معفياً الدراسة من عيب طالما وقع فيه الدارسون في باب تحديد المصطلح وتأصيل القضايا.

أما الفصل الثاني «التفسير المصري الحديث عند الدارسين» فكان إطلالة تقويمية على ما سبق هذه الدراسة من دراسات، تعرض في مبحثه الأول لموقف المستشرقين من هذا التفسير، وقد تعرض لكتابة ثلاثة منهم هم: جولد تسيهر اليهودي المجري فيما جاء بكتابه: «مذاهب التفسير الإسلامي» خاصاً بالمدرسة المصرية، و(ج جوميبه) الفرنسي في دراسته عن تفسيري المنار والجواهر، و(ج بالجون) الانجليزي في دراسته عن التفسير القرآني في العصر الحديث. وقد كشف هذا المبحث عن زيف المنهج العلمي الذي غلف به هؤلاء المستشرقون أحكامهم، وأوضح المبحث أن مفهوم التجديد التفسيري عندهم هو التعصير والتطوير بإبعاده عن أصله أو بهدمه من أساسه وعليه فلم يستحق - عندهم - لقب التجديد إلا محاولات الهدم والانحراف عن الحق، أما ما سوى هذا من أصيل التجديد المرتبط بالكتاب والسنة فهو - في نظرهم - رجعية وسبب لتخلف المسلمين لارتباطه بالماضي.

كما كشف هذا المبحث تهافت دعاوى «جولد تسيهر» وتعسفه في إثبات

المذهبية للمجددين في تفسير القرآن الكريم ، وقد حرص البحث على توضيح ذلك حتى يعرف قدر هذا المنهج الاستشراقي الذي استقبل بحفاوة بالغة في الشرق ، بل وارتفعت الصيحات بالدعوة الى محاكاته والنسج على منواله .

وقد أفرد المبحث الثاني من هذا الفصل لدراسات المسلمين للتفسير المصري ، فتعرض لسبعة اعمال من بيئات إسلامية متنوعة ، وقد وصل إلى أن مفهوم التجديد لم يكن واضحاً لديهم وضوحه عند المستشرقين ، الأمر الذي جعل الباحث يصف أعمالهم بالتجديد السلبي حيث تعمد إلى تنقية التفسير القديم مما يعلق به من خرافات وأفهام لا يقرها الإسلام في أصوله النقية .

●● أما الباب الثاني فقد خصص لدراسة التجديد وبذوره في مدرسة المنار وقد جاء الفصل الأول في مبحثين : **أولهما** ، عن التجديد الديني الإسلامي وتحديد المفهوم الحقيقي له الذي ينأى به عن المفاهيم المغرضة أو الساذجة التي تقلل من قيمته وما ذلك إلا لرفع الحرج الديني من القول بالتجديد ، وقد اقتضى هذا من الباحث ذكراً لمحاولات التجديد الفكري والديني على طول تاريخ المسلمين ، والتي كانت جميعها مؤسسة على تجديد فهم النص الديني في ضوء عصور التجديد وظروفها .

أما المبحث الثاني فكان عن حقيقة التجديد التفسيري ، وجوانبه ، وكان رائد البحث هنا هو النظرة إلى الجهود والتطبيقات العملية للمفسرين ، لينتهي إلى أن حقيقة التجديد التفسيري إنما هي استلهام النص مضامينه التي تفي بحاجة البشرية في كل شؤونها وعلى المجدد المفسر ألا يحمل النص ثقافته وعلمه ورأيه ، بل يأخذ من النص ما يقضي به ولو كان على خلاف ما يرى هو ، وعليه فالتجديد التفسيري ـ كما رأى البحث ـ انما هو تجديد نظر المفسر نفسه إلى القرآن الكريم ، بمعنى أن عقل المفسر ونظره هما اللذان تطورا ، من كثرة البحث والممارسة العلمية وقد رأى الباحث أن عناصر التجديد تأتي موزعة على جانبين هما :

أ ـ الجانب الفكري وسماه « الاتجاهات التفسيرية »

ب ـ الجانب الشكلي الذي احتوى هذه الاتجاهات وبرزت من خلاله قضاياها وأفكارها وسماه « المناهج التفسيرية » على أن أبرز ما يميز هذا المبحث هو اهتمام الباحث بتسويغ وجود اتجاهات كالاتجاه الهدائي ، والعلمي ، والأدبي ، إذ كل يمثل نظرة من خلالها عالج المفسر كيفية التوفيق بين المحتوى القرآني وواقع المسلمين ، وفي كل الحالات كان القرآن خصباً ثرياً يعطي الكلمة الفاصلة في السياق المحدد فيعيد نظر المسلمين إلى ثرائه وجدته التي لا تخلق على كثرة الرد . ولا ينسى الباحث أن يتعرض لجو المعارضة ضد بعض صور التجديد ، محتكما في هذا الموقف إلى ان المفسرين القدامئ في تعريفاتهم لم يضعوا شكلا محدداً للتفسير ، لا بد على المفسر أن يلتزمه ، ولهذا فإن الباحث يرتضي كل نشاط فكري في باب محاولة فهم النص القرآني ، سلك المنهج التقليدي أم نهج غيره من المناهج .

● ويجيء المبحث الثالث من هذا الفصل مركزاً نظرته على أسس التجديد التفسيري مرجعاً بعضها الى طبيعة النص القرآني ، وبعضها إلى طبيعة الدين الإسلامي ، وقواعده العامة ، وأحياناً يرجع بعضها إلى واقع المسلمين وحاضرهم أما ما يرجع إلى النص القرآني فذلك كاحتواء مدلوله على حقائق فكر القرون المواكبة ، فضلاً عن السابقة لنزوله ، مع مسايرته في خطاب العرب لأحوالهم وأساليب حياتهم ، فهو قرآن واحد يجد فيه كل عقل طلبته ، وتاريخ التفسير ليس إلا تطبيقاً مؤكداً لهذه الفكرة .

وأما ما يتصل بطبيعة الدين الاسلامي وظروف أهله الحاضرة فقد لمس البحث قضية ما أصاب المسلمين من جمود ، وما جد على حياتهم من غزو فكري ، اقتضى العودة الجادة إلى القرآن في ضوء كل هذه الملابسات ، وفيها ما يحفز على الاجتهاد ويدعو إلى التجديد الذي يستهدف الملاءمة بين تعاليم الإسلام وأهداف الحياة المتجددة .

● أما الفصل الثاني من هذا الباب (الثاني) فيلتقط بذور التجديد التي طرحت في تفسير مدرسة المنار بصفة عامة، ويصف هذه المدرسة ، بأنها كانت حقلا خصيباً في أرض التفسير القرآني ضم صفوفاً من البذور التي شكلت البداوات الأولى لما أصبح بَعْدُ اتجاهات فكرية و مناهج شكلية في التفسير المصري المعاصر ، على أن الباحث يحمل مدرسة المنار مسؤولية بذور كانت فاسدة ووجدت من يرعاها لتخلق فيما بعد أشياء هي أبعد ما تكون عن التفسير القرآني ، وهكذا يصل التشيع لمسيرة هذه البذور الى تبين ماذا كان في حقل التفسير القرآني .

وبهذا الفصل ينتهي من الدراسة بابان كان الأول تمهيداً وتحديداً وجاء الثاني مغطياً قضية التجديد في عمومها من خلال مدرسة المنار ، تلك التي ـ كما يرى الباحث ـ أنجبت من الجديد جانبيه الفكري والشكلي ، ولم يبق الآن سوى أن يقف مع هذه الاتجاهات والقضايا التي أثارتها .

●● أما الباب الثالث فهو آخر أبواب هذه الدراسة ، وقد خصص لاتجاهات التجديد في التفسير ، والقضايا التي شغل بها كل اتجاه ، وما دخل هذا الاتجاه أو ذاك من مناهج جديدة . وقد جاء هذا الباب في ثلاثة فصول **اختص الأول** منه بالاتجاه الهدائي ، وقبل ان يبدأ في مبحثي هذا الفصل مهد بحديث عن الهداية القرآنية وموقعها عند المفسرين عامة ، ثم التأسيس النظري لهذا الاتجاه الذي ركز على أهمية الهداية كأساس للمعنى القرآني . وعلى أن يُعْدَ المفسرين والمسلمين عن هذا ضرهم وجنوا ثمار هذا البعد تخلفاً واضطرابا . . . ثم يكون المبحث الأول من هذا الفصل مبرزاً لعدد من القضايا العصرية التي شغلت الأمة ، وشكلت بوجه ما تحدياً للفكرة الإسلامية فكانت وقفته الطويلة أمام القضايا التالية :

أ ـ الاجتهاد الإسلامي وحرية الفكر ونقض التقليد ، باعتبار كل هذا ـ في نظر المفسر ـ المدخل الطبيعي والحقيقي لباب التجديد .

ب ـ قضية السياسة والوطن وما يتصل بهما من مسائل كنظام الحكم ، والوحدة الإسلامية وعلاقتها بالوحدتين الوطنية والقومية .

ج ـ قضية العلم والحرية نظراً لاهتمام المفسرين بها استدلالا على عطاء القرآن في هذا الجانب .

د ـ قضية الاقتصاد الإسلامي في أصلين هامين لها وهما حق الملكية والزكاة وقد كشف جهد المفسر في هذا المجال عن مميزات سياسة المال في نظر الإسلام حفاظاً على التوازن الواجب بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة إلى الحد الذي يصل مرتبة الإعجاز .

وكان المبحث الثاني من هذا الفصل إطلالة محللة على أهم محاولات الاتجاه الهدائي فتعرض لتفسير القرآن الكريم لشلتوت في المنهج التقليدي الموضوعي ، ودستور الأخلاق في القرآن الكريم لدراز ، والمرأة في القرآن الكريم للعقاد في المنهج الموضوعي وفي منهج المقال التفسيري تعرض لبعض مقالات فريد وجدي في مقدمة تفسيره والعقاد في « الفلسفة القرآنية » وغيرهما .

● وقد خصص الفصل الثاني للاتجاه الأدبي في التفسير ، فعنى مبحثه الأول ببعض القضايا التي استفرغت جهد أصحاب هذا الاتجاه في مرحلة الدعوة له والتأسيس ، حيث غلب عليهم أن القرآن نص أدبي قبل أن يكون أثراً دينيا ، وعموماً فقد دار المبحث حول :

أ ـ الدعوة إلى الاتجاه الأدبي ومنهجه الموضوعي . يعرض لها عرضاً ونقداً وبياناً لما وقعت فيه من تناقض في بعض مواقفها .

ب : قضية الإعجاز القرآني والكشف عن وجوه للإعجاز تلائم تحدي القرآن للانسانية في العصر الحديث ، وذلك لأن المفسر يرى أن صلة التركيب بنفسية المخاطب أمر يستوي فيه العربي وغيره وهذا إعجاز وإعجاز .

ج ـ علاقة الإعجاز القرآني والاتجاه الأدبي بالتفسير النفسي والدعوة إليه إذ الأمر في النص القرآني ـ في نظر المفسر الأدبي ـ يدار على سياسة النفوس البشرية ورياضتها بما يؤيد حجته ويظهر دعوته .

ويتعرض المبحث الثاني لمحاولات هذا الاتجاه فيشير إلى كثير منها على اختلاف مناهجه ، وقد حلل من المنهج التقليدي « في ظلال القرآن » لسيد قطب ، فكشف عن قواعد منهجية جزئية ، داخل منهجه التقليدي العام ، كما كشف عن ازدواجية الاتجاه عنده ، وحدد ما اختص به من نزعة فنية ذوقية أو انطباعية ذاتية شكلت الشعور الخاص بوقع النص على المفسر . كما تعرض لمحاولة بنت الشاطىء « التفسير البياني » بالتحليل والتقويم الذي أظهر أن فخر بنت الشاطىء بهذا العمل أمر يحتاج إلى نظر ، كما تعرض لمقالين في منهج المقال التفسيري ـ لهذا الاتجاه ـ هما أسرار النظم والاعجاز القرآني للرافعي ، والشرك في القرآن الكريم لمحمد كامل حسين .

● وعلى نفس المنهج أفرد الفصل الثالث للاتجاه العلمي قضاياه ومحاولاته ، واقتضى هذا أن يمهد بحديث عن موضوع الدين والعلم ومدى اتصالهما ليقرر صلة حقيقية بينهما ، وأن التعارض لا يكون بين دين وعلم وإنما هو بين دين وجهل أخذ سمة العلم ، أو بين علم ولغو لبس ثوب الدين .

بعد هذا التمهيد الضروري يشغل المبحث الأول بقضايا الاتجاه ومنها :

أ ـ تفسير القرآن بالعلم والعلم بالقرآن ، والتقاء الحقيقتين العلمية والقرآنية ، وقد ركز المفسر العلمي على أن القرآن ذو رسالة علمية ، وأن قضية العلم هي أظهر قضايا القرآن بسطاً واهتماما ، بل إن المفسر العلمي يرى أن تجاهل الحقائق العلمية التي لا تتعارض مع القرآن قد يوسع الفجوة بين الفكر الإسلامي التراثي وبين الفكر العلمي الحديث ، ولأن القضية شائكة فقد أورد البحث آراء المفكرين للتفسير العلمي وحجج كل منهم ، ثم أورد الردود عليها ليتضح الموقف على نقائه .

ب ـ قواعد التفسير العلمي وضوابطه كما وردت عند رأس من رؤوس هذا الاتجاه وهي قواعد لها إلزامها فوق القواعد العامة للتفسير ، ومن عمومها تكشف عن أصالة هذا الاتجاه وقوة حججه .

ج - وكان طبيعياً أن يولي المفسر العلمي قضية الإعجاز القرآني من وجهها العلمي اهتماماً خاصاً ، وهو الوجه الذي لا يحتاج تفهمه إلى لغة أو أدب بل ويزكي هذا الاهتمام سماع الناس لكلمة العلم وحكمه .

●ويتعرض المبحث الثاني لأهم محاولات هذا الاتجاه بالعرض والتحليل فيتعرض في المنهج التقليدي لتفسير « الجواهر » . وينصف صاحبه من حملات ظالمة له حيث اتهم بأنه يخدر الأمة ويلهيها عن الطريق الحقيقي للتقدم ، ولعل خير رد على هذه التهم ما أثاره الاستعمار حول هذا التفسير حيث رأوا فيه خطراً وإيقاظا . وقد وفق صاحب الجواهر حيث فصل بين تفسير النص القرآني وبين سائر البحوث العلمية في تفسيره إيماناً منه بأن القرآن أعظم وأرفع من أي مذهب علمي بشري كما تعرض في المنهج الموضوعي لموضوع « الجبال والقيامة في القرآن الكريم » لمحمد الغمراوي وهو موضوع في التفسير يقترب كثيراً من شكل التفسير الموضوعي المكتمل للشروط . ثم يختم المبحث بحديث عن مقال « سكينة النفس » لعبد الرزاق نوفل ، وهو يتعرض لما أشارت إليه آيات كثيرة من أثر السكينة في نفوس المؤمنين ، وما قرره العلم من ذلك حديثا .

وبعد هذه الرحلة الشاقة في مسارب هذا البحث لا بد من نظرة لقارئ ، وفيها يتضح أن هذا العمل جهد مشكور في بابه وموفق في موضوعه إلى حد كبير ، وهو يصور دأب الباحث وجلده وتماسكه أمام هذه التفريعات والتشقيقات التي ترهق القارئ فضلاً عن صاحب الكلمة والرأي فيها ، وكل هذا حق علينا لصاحب الدراسة ، غير أنه بتعدد تقسيماته المنهجية (الباب - الفصل - المبحث - تمهيد للمبحث) يكلف القارىء كثيراً من العناء ، ولست أدري ما الدافع الحقيقي وراء هذا خاصة التمهيدات التي تسبق المباحث مع اعترافي بأهميتها أحيانا . والباب الثاني خاصة يؤكد كيف أنه من الصعب التفريق بين فصليه من جهة ، وبين مباحث الأول والفصل الثاني من جهة أخرى . ووقوفه أمام محاولات الاتجاهات بالتحليل والنقد أمر يحمد له ، غير انه في بعض الأحيان اظهر تعاطفه الشديد مع بعض المحاولات خاصة في

باب الاتجاه العلمي ، دون أن يظهر بوضوح ان هذا رأيه وما يميل إليه .

وليته تخفف أيضاً من بعض الأحكام وحدتها على ما سبقه من دراسات في هذا الموضوع ، ليسلم له منهجه الهادئ الدقيق ، خاصة وانه سيكون رافداً لباحثين يأتون بعده ويتتلمذون عليه .

وبعد . . فحق العلم والجهد المبذول من أجله علينا أن نسأل الله للباحث توفيقا ، وأن ندعو قراء الفكر الإسلامي إلى الاجتهاد والمثابرة ، وليجز الله عن الخير خيرا ، والله الموفق والهادي سواء السبيل .